" الوطنيه فى شعر رفاعة الطهطـــــاوى "

د . أحمد سيد محمـد

الوطنيـــــــة

استخدم العرب منذ العصر الجاهلى كلمة وطن وبعض مشتقاتها قال طرفة فـــــى معلقتـــه :

على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعتـــرك فيه الفرائص ترعـــد

والموطن هنا المشهد من مشاهد الحرب ، وبهذا المعنى وردت فى القرآن الكريـــم قال تعالى : " ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلـــــن تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين "(١)

قال ابن منظور : " الوطن : المنزل تقيم به ، وهو موطن الانسان ومحله واستشهـــد على ذلك بقول رؤبة :

أوطنت وطنـــا لم تكـــن مـــن وطنى "(٢)

وبهذا المعنى استخدم ابن الرومى كلمة " وطن " فى قولـــه :

ولى وطن آليت الا أبيعه ... وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

وفى اللغات الأوربية الحديثة نجد كلمة وطن PATRIE لاتينية الأصل . وقـــد تطور مدلول كلمة الوطن ، وارتبط تطوره ببعض مفاهيم علم السياسة ، كالدولة وعلاقة الفـــرد بالسلطة وعلاقة الافراد داخل الوطن وخارجه ، وهذا ماتشير اليه الكلمة الفرنسية PATRIE وهى تعنى المجتمع السياسى الذى ننتمى اليه ، أو نحمل له شعورا بالانتماء اليه .(٣)

وبهذا المعنى أيضا عرف قاموس (المعجم الوسيط) الوطن بأنه : " مكان اقامـــة الانسان ومقره ، واليه انتماؤه ولد به أم لم يولد "(٤) .

وقد تكوّن مدرك الوطن فى المجتمعات خلال رحلتها الطويلة نحو تحقيق مجتمـــع الدولة ، حيث أدى ظهور الاقليمية الى وضوح مفهوم السلام والحرب ، على أساس أن اقليم الجماعة هو دار السلام ، وأن ماوراءه هو دار الحرب ، وهيأ ذلك لظهور مدرك الوطـــن Patrie كدار للسلام يورثها الآباء الابناء وحيث تتوافق المصالح وتنعقد الآمال فـــى

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة وطن
(3) Petit Rabert, Je edition, Paris,1972.
(٤) المعجم الوسيط ، مادة وطن .

مواجهة هؤلاء المقيمين وراء حدوده ، وتظهر " الوطنيه " كمفهوم يعبر عن الترابط الواعى باطاره الاقليمى . (١)

واذا تتبعنا علاقة الوطن بالمواطن بهذا المفهوم أدركنا أن لكلمة الوطن ايحاءات رسبتها طبيعة العلاقات الانسانية فى العصور القديمة ، وربما أكدتها مزاعم التجديد حديثا ، فما يرويه " هيزودوت " عن المصريين القدماء أنهم كانوا يرفضون التعامل مع الأجنبى بل يرفضون لمسه ، ويكلفونه أشق الأعمال ... ونظر الاغريق الى الأجنبى نظرة الغريب الذى تجب مقاتلته ، فاذا ما أسر كان عبدا للاغريق ، وكذلك كان الحال فى عهد الرومان (٢) ، ولم تحقق مزاعم الاخوة الانسانية المعاصرة مشاعر الأمن ومايرتبط بها من الأحاسيس الكامنة خلف كلمة الوطن والوطنية .

فطبيعى أن يكون الوطن موضع اهتمام العلماء ومصدر الهام الفنانين والشعراء وملاذهم عند الوثبات والشدائد .

وقد عاصر رفاعه الطهطاوى (٣) وثبة وطنية فى مصر كرس لها نشاطه وفكره وساهم بشعوره الوطنى فى بناء هذه الوثبة وتدعيمها ، وأدلى بدلوه فى تعريف الوطن والحث على الوطنيه فهو يعرف الوطن بقوله :

هو عش الانسان الذى فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ومقطع سرته وهو البلد الذى نشأته تربته ، ورباه نسيمه ، وحلت عنه التمائم فيه .

---

(١) تنظيم السياسة ، د . محمد طه بدوى ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٨١ .

(٢) التأميم وأثاره فى القانون الدولى العام ، د . عبد البارى أحمد عبد البارى ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٦ .

(٣) هو رفاعه بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع يتصل نسبه بمحمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين ، ولد بمدينة طهطا بصعيد مصر سنة ٢١٦ هـ — ١٨٠١ م ، بدأ حياته التعليمية بها ثم التحق بالأزهر سنة ١٨١٧ ، ودرس به عدة سنوات ثم تولى التدريس به لمدة عامين ، وفى سنة ١٨٢٤ عين واعظا واماما بالجيش المصرى ثم اختاره محمد على اماما للبعثة المصرية الأولى الى فرنسا سنة ١٨٢٦ م .

وقد تناولت فى هذه الدراسة شعره الوطنى فوضحت صور مظاهر الوطنية من خلال اشادته بحب الأوطان والترنم بحب مصر والحنين اليها والفخر بها والتغنى بمعالمهـــا القديمة والحديثة ومديح حكامها والاشادة بالمواطن المصرى .

ثم حللت هذا الشعر وحددت سماته من حيث : (المواقف والبواعث والمضمـــون ، ووسائل التغيير ومكانته وتأثيره فى الشعر العربى) ، وأشرت الى أهم نتائج هـــذه الدراسة وذيلها بذكر ثلاثة نماذج من شعره الوطنى ، وختمتها بقائمة المراجع الهامة .

— وفى سنة ١٨٣١ عاد الى مصر بعد ان قضى فى باريس نحو ست سنوات مكبـــا على الدرس والتحصيل ، وبعد عودته تولى منصب الترجمة وتدريس اللغة الفرنسيـــة فى مدرسة الطب بأبى زعبل .

— وفى سنه ١٨٣٣ انتقل من مدرسة الطب الى المدفعية بطرة وعهد اليه ترجمـــة العلوم الهندسية والفنون الحربية .

— وفى سنة ١٨٢٦ أنشأ محمد على مدرسة الألسن بالقاهرة استجابة لاقتراح رفاعـــة وفى السنة التالية عهد بنظارتها اليه فتهيأت فرصة جديدة لظهور نبوغه كعالـــم محقق .

— وفى سنة ١٨٥١ اغلق عباس باشا مدرسة الألسن ونفى رفاعة الى السودان بحجـــة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بانشائها فى الخرطوم .

— وفى سنه ١٨٥٤ رجع رفاعة من منفاه بعد وفاة عباس وتولى سعيد باشا الحكـــم .

— وفى سنة ١٨٧٠ تولى رئاسة تحرير مجلة " روضة المدارس " التى انشأها العلامـــة على باشا مبارك .

— وفى سنة ١٨٧٣ ادركته الوفاة وله من العمر خمسة وسبعون عاما .

"مظاهر الوطنيه فى شعـــــره"

لعل الوطنية بمفهومها السابق هى أصدق صفة يطلقها الباحث على أثار رفاعـــة الفكرية ، وقد أكد ذلك الدارسون ، فيقول عنه عبدالرحمن الرافعى :

" تتبين وطنيته من أنك تراه يكثر من عبارات الوطن وخدمة الوطن والوطنيـــة فى مؤلفاته ، وهو أول من استعمل هذه الكلمات فى نثره ونظمه ، فتأمل فى فصول كتابـه (مناهج الألباب المصرية) تجد أنه جعل عنوان مقدمته فى ذكر هذا الوطن ، وماقاله فى شأن تدينه أرباب الفطن ، وتجده يقول عن سبب تاليف الكتاب ، أنه القيام بواجبـه نحو الوطن ، ويتكلم عن الترغيب فى حب الوطن ، ويشيد بمفاخر مصر فى فصول متعـددة مقررا على أنه لايتملق الجماهير فيما يكتب ، بل يخلص النصح والارشاد لبنى وطنـــه ، وبذلك برهن على وطنية صادقة خالية من شوائب التغرير والتضليل "(١) .

ويقول عنه جامع ديوانه الدكتور " طه وادى " :

" ترجم رفاعة القصيدة البارسية أثناء البعثة فى فرنسا ، وقد قيلت أثناء ثورة الفرنسيين ضد ملكهم شارل العاشر ، ولعل فى مضمونها الثورى مايبرر سر اعجاب رفاعة بها وترجمته لها . " ويقول عنه أيضا فى تقديم نشيد المارسلييز : " وترجمة رفاعة له منذ وقت مبكـــر يعكس اعجابه بمضمونه الثورى ، ومايحمل من دعوة الى الحرية والعدالة ، كما أنها دعـــوة "ضمنية " الى ايجاد نشيد قومى لمصر "(٢) .

والنفس لاتميل الا الى ماهو محبب اليها ، فهذا النشيد ولا شك قد استثار اعجـاب رفاعه حتى مالت نفسه الى تعريبه واظهار ما احتواه من العواطف الوطنيه والفدائيه .(٣)

والوطنيه بما لها من خصائص النزعات العاطفية او الغرائز الاجتماعية فانها تظـــل قوة كامنه فى النفس البشرية تتخذ فى سبيل التعبير عن ذاتها وسائل متعددة ، وقد حمل

---

(١) عصر محمد على : عبدالرحمن الرافعى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٤١٠ .
(٢) ديوان رفاعة الطهطاوى ، د . طه وادى ، القاهره ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٦ .
(٣) عصر محمد على : عبدالرحمن الرافعى ، ص ٤١٠ .

لنا ماعرفناه من شعر رفاعه مظاهر تكفى لرسم صورة متكاملة لهذه النزعة سنراها من خلال اشادته بحب الأوطان عامة وترنمه بحب مصر ، والحنين اليها ، والفخر بأمجادها والتغنى بمعالمها ، ومديح حكامها من خلالها ، والاشادة بالمواطن المصرى .

الاشادة بحب الأوطان والترنم بحب مصر :

ردد رفاعه " حب الوطن من الايمان فيقول :

محبة الأوطـــــان ... من شعب الايمـــان
فى أفخر الأديـــان ... أية كل مؤمـــن

ولم يكتف بوصف المواطن الصادق المحب لوطنه بالايمان بل جعل من صفة حب الوطن زينة يتحلى بها الأذكياء :

ياصاح حب الوطـــن ... حليـــة كل فطـــن (١)

سلك فى الاشادة بحب الوطن سبيل الاخبار والتقرير ، حتى اذا تهيأت النفـــس بالاغراء حثها علـى العمل ودعاها الى حب الوطن :

هيـــا نتخالف يا اخـــوان
بتأكيـــد العهد وبالايمـــان
أن نبذل صدقا للأوطـــان (٢)

وقد ترنم رفاعة بحب مصر كما يترنم العاشق فى وصف محبوبته ، فهو يقصر غزله عليها ، ويصورها فاتنة الجمال :

نظم النسيـب والغـــزل ... فى غيـر مصر يعتـــزل
فيهـا عـــلا ومانـــزل ... على غـــزال لعلـــع (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) ديوان رفاعه : ص ٩٣ ، ص ٩٧ ، ص ١٠٥

ويسمو بتلك المحبوبة فيصفها بالجلال ،وتهافت الناس على وصالها ، وحمايته لها من عيون الناظرين :

فمصر ما أجملها ... الكل يهوى وصلها
فان رنت عين لها ... نفقأها بالأصبع (١)

ويزين الحب كل شيء في مصر فيبدو في نظر الشاعر جنة وارفة الظلال دائمة القطوف، ونيلها العذب شهى الشراب كأنه الكوثر :

ولئن حلفت بأن مصر لجنة ... وقطوفها للفائزين دوانى
والنيل كوثرها الشهى شرابة ... لابُر كل البرد فى أيمانى (٢)

ومحبوبته كريمة الجوار ، رفيعة القدر ، فما أمتع المقام فى حماها :

أكرم بمصر من حمى ... علاه قد سامى السما
مربعة لقد سما ... فيا له من مربع (٣)

الحنين الى مصر:

اقترن حنين الشاعر الى مصر ببعده عنها ، ولا ريب أن البعد عن الوطن محك لاثارة مشاعر الحنين اليه ، وقد ذاق رفاعة الغربة مرتين كان فى الأولى أمام البعثة المصرية فى فرنسا منذ عام ١٨٢٦ م الى عام ١٨٣١م.

وكان فى الثانية مبعدا عن مصر شبه منفى الى السودان من عام ١٨٥١م الى عام ١٨٥٤ م وقد أثارت فيه الغربة نوازع الحنين الى مصر ، فهو يحن الى احيائه بصورة عامة ، يبكى لفراقهم ، ويقسم أنه ماطاب له عيش فى بعده عنهم فيقول :

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمة مغرم ولهان
ماخلته مذ صاح الا أنه ... أضحى فقيد أليفه ومغانى
وكأنه يلقى الى اشارة ... كيف اصطبارى مذ نأى خلانى؟
مع أننى والله مذ فارقتهم ... ماطاب لى عيشى وصفو زمانى
....
أبكى دما من مهجتى لفراقهم ... وأود أن لاتشعر العينان (٤)

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ديوان رفاعه ص ٩٢، ١٠٥، ٩٠

ويحن الى ايام الطفولة والنشأة الاولى فيقول :

ومصر أبهى مولـــــد ... لنا وأزهى محتـــــد
ومربع ومعهـــــد ... للـــروح أو للبـــدن (١)

ويحن الى أمانيه فيها وانسجامه معها فيقول :

شجدت لها العزائـــم ... نيطـــت بها التمائـــم
لطبعنـــا تلائـــم ... فى السر أو فى العلـــن (٢)

ويثير الحنين الى ايام الطفولة ذكرياتها العزيزة التى لن يوفيها حقها حتى لو بكى لفراقها أحر البكاء ، واضطرب قلبه لذكراها أشد الاضطراب فيقول :

زمن على به لمصر فديتهـا ... حق وثيـق عاطل النكران
لو شابهت عيناى فائض نيلها ... لم توف بعض شفائه احزانـى
أو لو حكى قلبى بحار علومهـا ... طربا لما أخلو من الخفقـان (٣)

وتتوقد عواطف الحنين الى الوطن بقساوة الغربة ، وأى قساوة تفوق حرمان الشاعـــر من رعاية اطفال صغار تركهم مقهورا يريد وصالهم ويأبى الدهر ذلك :

وقد فارقت أطفالا صغـــارا ... بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سرا وجهـــرا ... ولا سرى يطيب ولا رقـــادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهـم ... بلوعة مهجة ذات اتقـــاد
أريد وصالهم والدهر يأبـــى ... مواصلتى ويطمع فى عنـــادى (٤)

ومهما يكن غضبه على الدهر فانه يلجأ الى الله العطوف يدعوه أن يرعى عهد زمـان مصر ، وأن يمطره الحيا ، حتى يدوم ذلك العهد :

رعى الحنان عهد زمان مصـر ... وأمطر ربعها صوب العهاد (٥)

ويدفعه الحنين الى تصوير حالته فى الغربة ، وقد استبدل السودان بمصر فهو خاسر

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ديوان رفاعه ص ٩٣ ، ٩١ ، ٨٣ ، ٨٤

مغبون فى تلك الصفقة :

رحلت بصفقة المغبون عنهـا ... وضللى فى سواها فى المـزاد
وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سعـادى

وعندما يستبد الحنين بالغريب وتتكالب عليه الهموم فانه يلفظ بالحديث عن الأوطـان حيث الميلاد والنشأة الأولى فيقول :

مساقـط الـرؤوس ... تلـذ للنفـوس
تذهـب كل بـؤس ... عنـا وكل حـزن (١)

ويتخذ الشاعر من حنينه الى مصر سببا لشحذ الهمة ، وقوة العزيمة لاسيما فى الفترة التى أقامها بالسودان ووصف فيها حاله بقوله ، " أقمت برهة خامد الهمة ، خامد القريحة فى هذه اللمة حتى كاد يتلفنى سعير الاقليم الفاتر بحره الكاسر بخرطومه ... فما تسليت الا بتعريب تليماك وتقريب الرجا بدور الافلاك . ويقدم رفاعه لترجمة هذه الرواية بقصيدة وطنية فى حب مصر (٢) ، وهكذا يستنهض عزائم نفسه بالحديث عن أصله وموطنه والتغنى بحب بلاده :

سوى نسب العلوم لى انتساب ... الى خير الحواضر والبوادى
حسينى السلالة قاسمـى ... بطهطا معشرى وبها مهادى (٣)

الفخر بمصـر :

افتخر رفاعه بحضارة مصر القديمة ، وتاريخها العامر بالأمجاد كما افتخر بنهضتهـا المعاصرة على يد (محمد على) ، وشهد رفاعة هذه النهضة وأسهم فيها فراح يصورهـا ويفتخر بها ... ومن حق مصر أن تفتخر بأمجادها :

وفخرهـا ينـادى ... ما المجـد الا ديدنـى (٤)

---

(١) ديوان رفاعه ، ص ٨٤
(٢) وقائع الافلاك فى مغامرات تليماك ـ مترجم ، ط. بيروت ، جزآن
(٣) ، (٤) ديوان رفاعه ، ص ٩٣ ، ٩٤

ولا يلتبس مجدها وافتخارها به الا على الادنياء الاوغاد :

ومافخارها التبـــــــى ... الا على وغد دنى (١)

وليس ذلك الجد او الفخار امرا عارضا ، بل له جذوره التاريخيه :

فخر قديم يؤثـــــــر ... عن سادة وينشر

زهور مجد تنشـــــــر ... منها العقول تجتنى (٢)

ولعل اهم مارددده رفاعه فى الفخر بمصر هو حضارتها القديمه ، فمصر ام الدنيا :

قد حازت منزلة عليـــــا ... وبذا دعيت : ام الدنيا

وبصيب الموئى والاحيـــــا ... فاقت مجدا كل البلدان (٣)

ومصر مهد الحضارات ، ومنها انتشر ضياء المعرفة فى شتى ربوع الارض:

الكون من مصر اقتبـــــس ... نورا وماغه احتبـــــس

مصر لهـــــا ايـــــادى ... عليا على البـــــلاد (٤)

ومن حضارة مصر القديمة ارتوت الحضارة اليونانية ، واصبح لمصر سابق الفضل على البشرية كلها :

لمصرنا سالف المزيـــــة ... فقد مدنت سائر البريـه

منها "اثيا" غدت مليـة ... بحكمة قصرها مشيـــد (٥)

ويلهج رفاعة باسم المدن المصرية القديمة ذات الحضارة المعروفة فى التاريخ فعين شمس "ومنف" و "تنيس" و "طيرى" "مدن مصرية قديمة ذات حضارة :*

كالشمس فضل "لعين شمـس ... وانس "منف" اجل انسـى

ووشى "تنيس" غير منسـى ... من حسنه الدهر يستفيـد

وفخر "طيوى" قديم عهـد ... ابوابها محكمات عـــد

وحصرها عن صحيح عـــد ... فى مائة كلها شهـــود (٦)

وهكذا ينبه رفاعه بسابق مجد مصر القديم :

لنا فى سابق المجـــــد ... سباق باء بالرشـــــد

وكم فى حـــوزة الحـــد ... سعادات تقابلنـــــا (٧)

---

(١) ديوان رفاعه ، ص ١٠١

(٢) وقائع الافلاك فى مغامرات تليماك ـ مترجم ـ ط. بيروت ، جزآن .

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ديوان رفاعه ، ص ١٠١ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٠٩

* راجع الموسوعه المصرية ، جـ١ ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، القاهرة .

ويردد رفاعه افتخاره بحصر ماكان معروفا عنها من الثراء ووفرة الخيرات :

ممالك مصر معمـــــورة ... وبالخيرات مغمـــــورة (١)

وبهذا الثراء ووفرة الخيرات تصبح دارا للتعيم والرفاهيه:

دار نعيم زاهيـــــة ... ومعدن الرفاهيـــــة (٢)

ويفتخر رفاعه بشخصيته مصر فى معاملة الغريب معاملة رقيقة فتحلو فى عينيه ويعشـــــق وادىيها فيتخذها وطنه:

تحنو على القريـــــب ... تحلو لدى الغريـــب (٣)

كل فتى جليـــــل ... يعشق وادى النيـــل

كم فيه من نزيـــــل ... يقول مصر وطـــــنى (٤)

وبهذا المنطق المبسط حلل رفاعة ظاهرة تقبل المصريين حكاما ليسوا من اصـــول مصرية وتاريخها الاسلامى عامر بالامثلة اذ حكمها ملوك ووزراء من اصول عربية وارمينيـــة وشركسية وتركيه وغيرها (٥) :

والوف قرون بعد هلـــت ... فى حكم سواها مادخلت

وباسر الغير لها بخلت ... فمن الابنا كان السلطان (٦)

واى بنوه وابوة بين دولة تحكم على انقاض دولة اخرى كالقراطم والايوبين والمماليـك والعثمانيين ؟

غير ان رفاعه اعتبر مصر وطن الجميع ، وانها ام لهم جميعا ، قبلتهم دون تفرقـــة بين اصولهم العرقية ، وكان هذه الاصول ذابت بمقامهم فيها .

ويفتخر رفاعه بقوة مصر الحربية ، وقد اتخذت هذه القوة مظاهر مختلفة فهى حاكمـة على مجموعة من الاقطار تامر وتنهى ، وقاهرتها عاصمة لدولة كبيرة ايام الفاطميين والايوبيين والمماليك :

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ديوان رفاعه ، ص ١٠٨ ، ٩٤ ، ١٩٥ ، ١٠١

(٥) تناولت تفاصيل هذه الظاهرة فى كتابى الشخصية المصريه فى الادبين الفاطمى والايوبى ص ٤٠ ومابعدها ، دار المعارف سنة ١٩٧٩ .

(٦) ديوان رفاعه ، ص ١٠١ .

قوة مصر القاهـــــرة ... على سواهـا ظاهـرة
وبالعمار زاهـــــرة ... خصت بذكر حســـن (١)

وهى مقبرة الغزاة : غزاها الهكسوس والفرس واليونان والرومان والصليبيون والتتـــار والاوربيون ، ولكنها كانت دائما مقبرة لهم :

ما أمها جحـــــود ... الا انثنى بالوهـــن (٢)

وعيونها ساهره ترسى عدوها بالنظر الشذر
ترنو الى الرقيـــــب ... شذرا بسهم الاعيـــن (٣)

وكما افتخر رفاعه بقوة مصر العسكرية قديما راح يزهو بقوتها العسكرية حديثا وكانت قد بلغت حدا فى عصر الشاعر على يد محمد على باشا وابنه ابراهيم جعل تركيا تستعيـن بها ، ثم تخشى باسها ، وجعل الاوربيين يخافون سطوتها :

نحن البهاليل فى المعارك ... نحن الصناديد فى المهارك
سهامنا انجم الحوالـــك ... بنورها يهتدى الوجـــود (٤)

وأشار رفاعه بوفرة العدد والعدة فى فخاره بقوة جيش مصر :

رجال مالها عـــــدد ... كمال نظامها العـــــدد
حلاها الدرع والـــــزرد ... سنان الرمح عالمنـــــا (٥)

وراح يتابع الفخر بقوة مصر الحديثة فى عصره ، فوصف الخيل والمدافع والقلاع والحصون وحسن الانضباط العسكرى ، وسداد راى القادة وطاعة الجند ، وفى افتخاره بقوة مصـــر العسكرية يربط بين انتصارات مصر الحربية القديمة وانتصاراتها فى عصره :

من حين عهد " سزستريس ... كان الحروب لها مميس
ألقى المهابة والرسيـــس ... فى كل جيش او خميـس (٦)

ويصور انضمام (صور وصيدا) الى حكم مصر فى عصر محمد على فيقول وفتخرا بعظمة

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، ديوان رفاعه ص ١٠١ ، ٩٤ ، ١١٩ ، ١٠٩ .
(٦) ديوان رفاعه ، ص ١٠٩

مصر العسكرية :

صيدا وصورا تحـــــدا ... ولمصر قد مدا يـــــدا (١)

التغنى بمعالمها :

مصر غنية بالمعالم الاثرية ، وقد شهدت نهضة ثقافية وعمرانية فى عصر رفاعه ، راح يتغنى بها فى شعره ، ويشيد بالقديم من معالمها تارة والجديد تارة اخرى:

مآثـــر مصر مشهـــوره ... بهـــا التاريـــخ واصلنـــا
وقت بمناقب الوطـــــن ... معالمنا تداولنـــــــا (٢)

والنيل واهب الحياة فى مصر ، يقترن اسمها باسمه والحياة فيها بجريانه ولم يتحدث كاتب او شاعر او عالم عن مصر الا وللنيل فى حديثه عنها نصيب موفور.

وتحدث رفاعه عن النيل ودوره فى ثراء مصر ، فهو يحدد شباب تربتها كل عام وعلى متنه تجرى المنشآت كالاعلام ناقلة البضائع والمسافرين :

وغنية بالنيل عن نيل الحيـــا ... وله اياد فى الوفود جسام
وعن المطى المثقلات وحلهـــا ... بالمنشآت كأنها اعـــلام
من كل باسطة الجناح كأنهـــا ... لما تسير بالرياح غـــمام
تسرى بمن فيها وهم فى غفلـة ... وكذا ليالى الدهر والايام (٣)

ومائه عذب كأنه نهر الكوثر :

ونيلها العذب فهو كوثـــر ... منهله زانه الـــــورود (٤)

وتعود المصريون قبل بناء السد العالى انتظار فيضان النيل فى اشهر معلومـــــات وكانوا يقيسون ارتفاعه بالذراع فمتى بلغ حدا معينا كان عام رخاء وكانوا يحتلفون بوفائـــه وقد ومـــه .

ونيلها المبـــــارك ... فى الفيض لايشـــارك

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ديوان رفاعه ، ص ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٠٨ ، ١٢٤

ارجازه مسالـــــــك ... ترقى بكل مشـــــرع
يروى بعذب سلســـــل ... اخبار فضل مرســـــل
بالصفا مسلســـــــل ... عن الوفـــــاء بالاذرع (١)

وتحدث رفاعه عن اثار مصر القديمة واشاد بها فاهرامها قديمة لم تعرف الهرم :

وقديمة شاب الزمان وحسنها ... باق ولم تهرم لها اهرام (٢)

وسبق ان اشرت الى افتخاره بمدن مصر القديمة ، وماخلقته من حضارات كمدن عيـــن شمس ومنف وتنيس (٣) .

كما اشاد بالازهر* ودوره فى الحفاظ على الحضارة العربية والمعرفة الانسانيـــــة والعلوم الدينيه .

ولكم بازهارها شمس اشرقت ... وانارت الاكوان بالعرفان (٤)

وشهدت مصر معالم جديدة فى عصر رفاعة راح يتغنى بها فكان عصر محمد على عصر نهضة عمرانية ، ومن مظاهر العمران اهتمامه بشق الترع ، ومنها ترعة المحموديه**

لفتح الترعـــة الكبـــرى ... بغرب النيل فى مصـــر
تجدد للهنا عصـــــرا ... به تسمو منازلنـــــــا (٥)

---

(١) ، (٢) ، (٣) ديوان رفاعه ، ص ١٢٢ ، ١٢٠ ، ١٠٥ .

* الازهـــر :

اول مسجد اسس بمدينة القاهره ، وقد تم بناؤه فى سنة ٣٦١ هـ ، وكان الهدف من تاسيسه اقامة الصلاة ، ثم تحول الى مركز رعاية للمذهب الشيعى ،ولعب دورا هامـــا فى تاريخ مصر والحفاظ على التراث الاسلامى والعربى .

راجع : القاهره تاريخها واثارها . عبد الرحمن زكى ، مساجد القاهره ومدارسها ، احمد فكرى .

** ترعة المحمودية : تحدث الجبرتى فى مواطن مختلفة عن ترعة المحمودية التى بدأ حفرها فـــى جمادى الثانيه سنة ١٢٣٢ ـ ابريل سنة ١٨١٧ م وعهد محمد على بتصميم حفرها الى مهندس فرنسى هو " اكسيود كوست " ولما تم حفرها افتتحها محمد على فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ م بيع الثانى سنة ١٢٣٥هـ ، انظر تاريخ الجبرتى حوادث ١٢٣٥ هـ .

الاشادة بالمواطن المصرى :

اشاد رفاعه بالمواطن المصرى ، ووصفه بمجموعة من الصفات الحميده ، منها الرقى والسيادة وحسن الطاعه .

أما ترى الاهالـــــى ... ترقى ذرى المعالـــى
هم سادة موالـــــى ... جمال وجه الزمـــــن

ومنها طول الصبر وصدق العزيمة :

أبناؤها رجـــــال ... لم يشبهم مجـــــال
ولابهـــم أوجـــال ... فى ليل وقع دجـــن

ومنها رقة الطبع وسلامة الذوق وبعد الصيت فى التحضر والمدنيه :

وذوقهم مطبـــــوع ... وقد رهـــم مرفـــوع
وصيتهـــم ممـــــوع ... بشرف التمـــــدن

ومنها الشجاعه ورباطة الجأش والصبر على القتال ومنازلة الاعداء :

وجندهـــم صنديـــد ... وقلبـــه حديـــد
وخصمـــــة طريـــد ... بـــل مدرج فى كفـــن

سمات شعره الوطـنى

الموقف والبواعث :

" الموقف فى معناه الحيوى العام : علاقة الكائن الحى ببيئته وبالاخرين فى وقت ومكان محددين ، وبهذه العلاقة يكشف الانسان عما يحيط به من اشياء ، ومخلوقات يوصفها وسائل او عوائق بمشروع يقوم به الفرد مرتبطا بما يحيط به من عوامل يتجاوزها بمشروعه الى غايـة له يحاول بها التغيير من حالته الحاضرة ... فالموقف يتالف من عوائق ومن مقاومتـه لها فى وقت معا وفيه يتحقق وجود المرء عن طريق العمل والصراع .. فما الوجـود الانسانى المشروع سوى وجود فى موقف "(١) .

بهذا المفهوم الدقيق للموقف ـ وهو ادق من مدلول كلمة " ايدلوجية " اقيم وطنيـة رفاعه وبواعثها من خلال شعره .

وقد ربط الرافعى بين الوطنيه فى فكر رفاعه وتكوينه الذاتى فقال :

" لقد اشربت نفس رفاعه بالوطنيه منذ نعومة اظافره تلقاها من ايمانه الصادق ومـن فطرته السليمة وحب الخير "(٢) .

وهذا القول يفسر لنا تهيوء نفس الشاعر للوطنيه الصادقة ، او الصدق فى الوطنيـة وهو جانب ذاتى .

والادب وان كان ابداعا ذاتيا فرديا فان فرديته لاتنفى اجتماعيته ، فالاديـب فى تعبيره الصادق عن وعى او لا وعى ، عن تلقائيه والهام خالصين او ممتزجين بتخطيـط ومقصد انما هو فى حياته وابداعه محصلة العلاقات الاجتماعيه .

ان ذاتيه الاديب جزء من نسيج موضوعى اجتماعى وحصيله خبرته ومواقفة وعلاقتـه وانشطته "(٣) .

---

(١) المواقف الادبية ، د . محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر ـ القاهرة ، ص ٣٣ .
(٢) عصر محمد على ، عبد الرحمن الرافعى ، ص ٤١٠
(٣) ملاحظات حول نظرية الادب وعلاقتها بالثورة الاجتماعيه ـ محمود امين العالم ، منشورات وزارة التعليم العالى والبحث العلمى ـ الجزائر .

وفى عصر رفاعه توازى عاملان : احدهما تطور الحياة السياسية والاجتماعيه فى مصر والاخر مؤثرات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية الفرنسية عليه .

اما مصر فمنذ حملة نابليون سنة ١٧٩٨ وهى تبنى صرح وطنيتها وكانت ثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية ، ونهضة محمد على بالجيش المصرى وانتصاراته الحربية ينابيع النزعة الوطنية عند رفاعه ، فهوية الشاعر كما يحددها فيكتور هيجو " الشخص الملهم الذى يقود الشعوب الى احسن مقدراتها .

وكانت فرنسا تمر بمرحلة حساسة فى تطور وطنيتها ، وكان للادب دوره فى ذلك ، ففى اوائل القرن التاسع عشر لفيف من الكتاب اللامعين ، والرسامين الفرنسيين بالثورة على الادب الكلاسيكى والرومانتيكى الحالم . ومنذ سنة ١٨٣٠ بدأت هذه الحركة تاخذ شيئا فشيئا طابعا سياسيا تجلى فى كثرة انتاجهم فى دواوين الشعر والمسرحيات وكان القرن الثامن عشر حافلا بالثورات فى فرنسا واقترن بها تطور الشعر السياسى ولا سيما الاناشيد الوطنيه (١) ، وكان نشيد فرنسا الوطنى " المارسلييز قد ملأ الافاق قبل ان يحط رفاعه رحاله هناك .

وبذلك تهيأت ظروف تكوين التيار الوطنى فى شعر رفاعه من عناصر الفطرة الذاتية وتطور الحياة الوطنية فى مصر وتاثير الثقافة الفرنسية .

اما طابع الوطنيه وجوهرها فقد حدده الشاعر تحديدا اقليميا فالوطنيه تدور فى حدود مصر بشكلها الجغرافى الذى لم يتبدل منذ فجر تاريخها .

والحضارة التى افتخر بها هى حضارة مصر مهما ترامت فى اعماق التاريخ واختلفت جنسيات صانعيها فهى فى النهاية مصريون ومن هنا فرفاعه هو الذى ثبت فكرة القومية المصرية فى زمن كانت فيه رداء من اروية العار يعير به السادة الترك رعاياهم من الفلاحين (٢) .

---

(1)La Lacture Expliqueé parch-Mdes Granges et ch-charrir page 292, Paris.

(٢) تاريخ الفكر المصرى الحديث ، د . لويس عوض ، كتاب الهلال ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٩١

حقا لم يكن الحديث عن القومية العربية هو الوطنيه عند شعراء العرب فى عصر رفاعه ولكن كانت هناك صورة اخرى هى الاسلام وقد ضرب على اوتارها شعراء عاصروا رفاعه من امثال الامير عبد القادر الجزائرى (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣ م) حين يقول :

ورثنا سؤددا للعرب يبقى ... وماتبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ... يمنا فوق ذا طالبت فعال

ويعلق محقق ديوانه د. ممدوح حقى بقوله ان فكرة العروبة واضحة فى البيت الاول من البيتين السابقين وضوحا لاشك فيه ، ولقد توضحت عند الشاعر بذوره القومية العربية قبل كثيرين غيره من زعماء العرب ، وسبق بها الزمان بنحو قرن تقريبا ، ويشيد بجيشه الجزائرى فلا نجد فيه نغمة الجزارة بل نجد فيه التمسك بالاسلام .

هم الالى دأبوهم شق الصفوف لدى ... حملاتهم صار جيش الكفر هشانا
الدافعون عن الاسلام كل اذى ... يانفس قد غلت قدرا واثمانا
كم غمة كشفوا ، كم كربة رفعوا ... وكم ازاحوا عن الاسلام عدوانا

وموازنة سريعة بين مفهوم الوطنيه عند رفاعه والامير عبد القادر كما تعكسها اشعارهم يتجلى الفرق بين الموضوع والموقف ، فالموضوع وطنى صادق النزعة والموقف يختلف مدلوله باختلاف الظروف التى املت على كل منهما تحديد خاصا يجرى فيه افكاره وعواطفه الوطنيه الصادقة .

وماكاد اجزم بان مفهوم الوطنيه الذى نراه فى شعر رفاعه استقاه من المدلول السياسى المعاصر وليس من الموروث عن الشعر العربى القديم ، وقد تبلور المفهوم السياسى المعاصر فى اوربا .

واضطلع به رفاعه فراح يطبقه فى شعره ، ولكن هل استطاع ان يكيف هذا المدلول فى قالب فنى جديد ام انه ظل اسير الشكل القديم بعيوبه وحسناته ؟ ثم هل مكنته ظروف اللغة العربية فى عصره من ذلك ام لا ؟

هذا ماسنحاول الاجابة عنه فى الصفحات التالية من هذا البحث .

المضمون الوطنى فى شعر رفاعـــه

جاء شعر رفاعه فى عصر يعد مرحلة انتقال من عصر الركود الى عصر النهضة ، وتعـد الفترة التى عاش فيها فترة الارهاص بالنهضة ، وكانت حالة الشعر فيها تتلخص فى : ان الطابع العام كان الطابع التقليدى المتخلف الردىء الذى منه نماذج تعد الـــى الألاعيب والحسنات كأكثر نماذج الشيخ الدرويش والشيخ الشهاب ، ومنه نماذج تنجـــو من الألاعيب والمحسنات ، ولكن تتورط فى السطحية والاهتزاز والفتور .

وبالاضافة الى هذا الطابع العام كانت توجد نماذج قليلة اقرب الى روح الشعـــر كبعض نماذج العطار ، ثم كانت توجد نماذج اقل تحمل بواكير التجديد كوطنيات الطهطاوى واناشيده ، فهذه الفتره على طابعها التقليدى المتخلف الردىء قد حوت فى اخرها بـــذور التجديد الشعرى الذى يتضح فى الفتره التالية (١) .

واذا تأملنا اغراض الشعر الذى دار فى فلكها معاصروا الطهطاوى ،او التى تناولهـا هو باستثناء شعره الوطنى ، وجدناها تكاد تنحصر فى المدائح النبوية او الاخوانيات والمراثى اما شعر رفاعه الوطنى وشعر الاناشيد فهو ذو طابع تجديدى وذلك ان الشعر الوطـــنى وشعر الاناشيد الحماسية فيه حديث عن الوطن بهذا المفهوم السياسى والحضارى الجديد فيه كذلك تمجيد لهذا الوطن والحث على افتدائه وبذل كل شىء فى سبيله (٢) .

وشعر الوطنيه كما لاحظنا عند رفاعه يتكون من عدة اغراض ، وليس من بين هـــذه الاغراض ماهو جديد على الشعر العربى ، وانما الجديد هو طريقة تناول هذه الاغـراض وضبطها الطابع الجديد لمفهوم الوطن والوطنيه ،ولقد كان رفاعه على علم بهذا المفهـوم افاده من دراسته العلوم السياسية وترجمته دستور فرنسا .

فالفخر قديم فى الادب العربى ، ولكنه كان فخرا ذاتيا او قبليا او عرقيا او دينيـــا ولم يكن فخرا وطنيا بهذا المفهوم الجديد . لقد افتخر الشاعر الجاهلى بقبيلته ومجدها وناصر الشعراء الاسـلام دعوتهم ،وايد شعراء الحزبية احزابهم ، وتبارى شعراء النزعـات

---

(١)و (٢) تطور الادب الحديث فى مصر من اوائل القرن التاسع عشر الى قيام الحرب الكبرى الثانيه د . احمد هيكل ، دار المعارف ، ص ٣٧ .

العقائدية فى تمجيد مذاهبهم ، وفى هذه الالوان كلها لانرى مدلول الوطنيه واضحا بالصورة التى رأيناها عند رفاعه .

فالجاهلى يتحدث عن قبيلته التى لاتعرف الاستقرار فى موطن ، وشعراء الدعوة الاسلامية يتحدثون عن الفكرة العقائدية غير منتمية الى زمان او مكان ، وشعراء الاحزاب الاموييون يناصرون حزبا بذاته خارج او داخل وقعة الوطن الواحد .

وشعراء التعصب المذهبى يدافعون عن المذهب بغض النظر عن الجنس او الوطن او الزمان او الارتباط باقليم معين والانتماء اليه ، ولا شيء من ذلك يعبر بدقة عن الوطنيه ـ باعتبارها المجتمع السياسى الذى تنتمى اليه او تحمل له شعورا بالانتماء ـ ويصبح منظار الشاعر الذى يرى الحياة من خلاله كما عكستها لنا اشعار رفاعه الوطنيه .

وطغى المديح على بقية اغراض الشعر العربى مع تباين نزعات المادحين فزهير بن ابى سلمى لايمدح الرجل الا بما هو فيه ، والنابغة يتكسب بمديحه ، والمتنبى يسوى بينه وبين ممدوحه ، وبين هؤلاء جميعا لفيف يكذب ويتهافت امام ممدوحه ، وربما يقترن المديح بموقف سياسى او عقائدى ولكن فكرة الوطنية التى رأيناها فى شعر رفاعه لم تكن واضحة عند غيره من شعراء العرب السابقين ، فقد امتدح محمد على وابراهيم باشعار نهج فيها منهج الاشادة بالمفاخر القومية "(١) ، ومع ذلك فقد فسر الدكتور طه وادى هذا المسلك عند رفاعه بانه دفاع عن شك قد يثار أورده الطعن قد يقال ، وهو بذلك القول يصور رفاعة مداحا ممجدا للاسرة الحاكمة واتجاهه الى الشعر الوطنى كان مداره فحسب .

وعلى العكس من ذلك تماما تشير تلك المدائح من خلال ملاحظة القرائن التالية :

ـ تركيز الثناء على الجانب المرتبط بعمل وطنى دون الجوانب الاخرى التى تعود الشعراء ترديدها فى الثناء على الممدوحين .

---

(١) عصر محمد على ، ص ٤١٠ .

(٢) يقول د . طه وادى ص ، وهنا نلاحظ انه حاول فى نفس المرحله التى بدأ واضحا مدحه للاسرة الحاكمه ان يعلى من صوته ويزيد من فخره بوطنه دفاعا عن شك قد يثار او ردئا لطعن قد يقال .

- طغيان الحديث عن الوطن على الجوانب الاخرى فى قصائد المديح .
- استهلاك قصائد المديح دائما بشعر الوطنيه والاطالة فى ذلك الاستهلال .
- خلو هذه المدائح من المطالب الذاتيه او المصالح الفردية عدولا عن ذلك الى مطالب الوطن ومصالح المواطنين .

ونلاحظ فى حنين الشاعر الى الوطن ان مشاعر الحنين تختلف باختلاف بواعث الغربة فحنينه الى مصر اثناء غربته بفرنسا تعكس لنا روحا تتقد بالعزم ، وتتطلع الى الغد الباسم ، وتحكى تفاؤل الشاعر بمستقبل بلاده لانه كان يعيش فى هذه المشاعر فهو امام بعثة مصر الناهضة المتطلعة الى تكوين امبراطورية واسعة تعتمد على التقدم العلمى والتطور الفنى اما حنينه الى مصر وهو منفى الى السودان فتعكس لنا روحا فاترة وكأنه يستجدى العزم وقد اقفرت روحه وخارت غزيمته ، وكانت تلك حالة وحال مصر التى انتكست فيها الحياة الثقافية والتعليمية ، وابعد عنها رجالها المخلصون .

ومع ذلك فان رفاعه يلجأ الى الحنين الى مصر لا ليستنهضها هذه المره وطنه بل يستنهض نفسه الخائرة بذكر وطنه القوى دائما فى نظره ، وكأنه اثناء غربته بفرنسا كان يستنهض مصر ويمدها العزم من ذاته اما فى غربته بالسودان فانه كان يستنهض ذاته مستلهما قوة مصر وهو فى كلا الموقفين شاعر الوطنيه (١) .

---

(١) راجع نماذج الحنين الى مصر ، ص ٦ ومابعدها من هذا البحث.

وسائل التعبير الشعرى

ماتزال علاقة اللغة بالفن الادبى موضع اهتمام النقاد والدارسين ، ومع ذلك لم تزل المحاولات فجة لايحكمها منطق او قانون الا قانون الانطباعات الذاتية ومنطق الحس اللغوى وهو ـ بلا جدال ـ قابل للتباين لا فى مجال التطبيق فحسب وانما فى المبدأ الذى يمكن الاحتكام اليه .

وعلى الرغم من ذلك فلا بأس من الحديث عن لغة شعر الوطنيه عند رفاعه وربما نحتكم فى هذه القضية الى مبادىء اقل جدالا من جدالنا حول قضية ادبية اخرى او حول اديب سواه ، وذلك لسببين :

احدهما : ان رفاعه يمثل منعطفا واضحا فى تاريخ اسلوب اللغة العربية التى كانت تنطلق من قيود الركاكة والاسفاف والضعف الى السلامة والصحة والانتشار وممارسة التعبير عن العلوم والفنون والاداب . وقد اسهم رفاعه بدور مشهود فى ذلك المجال بما ترجمه وماكتبه باللغتين الفرنسيه والعربية ، اذ كان لممارسته الكتابة باللغة الفرنسية اثر فى تحرر اسلوب كتابته باللغه العربية (١) .

وثانيهما : هو غلبة فن النشيد الوطنى فى شعر الوطنيه عند رفاعه ولهذا الفن سماته الخاصة من حيث البواعث والاهداف والاسلوب ، يحدثنا (تورافال) عن تاثير ثورة فرنسا من عام ١٧٩٢ الى ١٨٠٤ فى ادب المقاومة والاناشيد الوطنية فيقول : " لم تكتف الثورة بخلق روح المعارضة ضد الظلم ، وانما طورت فى العشر سنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر ادب المقاومة الذى يعد من اهم مقوماته الفنيه البيان والافصاح : وقد بقيت اللغة خليطا من ذلك الموروث اللاشعرى القديم ، فالبلاغه الكلاسيكية ماتزال محتفظة بمكانتها كما لاتزال نداءات افضيلة والاحاسيس .

---

(١) عدد خير الدين الزركلى فى كتابه الاعلام اثار رفاعه الطهطاوى واشار الى المطبوع منها والمخطوط . الاعلام ج٣ ، ص ٥٥٥ ، بيروت .

ولكن نداءات الحرب والانتقام كانت عالية وبصفه دائمة ، وهكذا حلت الاناشيد الوطنية بقوة الفاظها الصاخبة ذات التاثير الانفعالى السريع محل الاغنية الذاتية الحزينه (١)

ومن ثم فان سمات اسلوب شعر الوطنيه عند رفاعه تتحدد فى اطارين هما الاناشيد الوطنيه والاغراض الشعرية الاخرى ، واسلوب رفاعه فى الجانب القانى يمثل اسلوب عصره ومحاولته التخلص من العيوب التى شاعت فيه . ومع ذلك فما تزال سماته تعكس خصائص هذا الاسلوب .

فهو مايزال تحت ضغوط التلاعب اللفظى المبتذل والذى يعتمد على الزخرف البديعى كما نرى حين يشيد بالشيخ حسن العطار والشيخ العروس وهو يتحدث عن مصر فيقول :

قد شبهوها بالعروس وقد بدا ... منها "العروس" بهجة الاكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم ... "عطارها" حسن " شذاه معانى (٢)

ويؤرخ بالشعر على عادة شعراء عصره :

حين يمدح الخديوى اسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ ويؤرخ لهذه المناسبة بقوله :

مصر اسماعيل نالت ... صفر عيش ليس يأجن
فاحظ بالبشرى وأرخ ... دور تقديم التمدن

٢١٠ ـ ٥٥٤ ، ٥٢٥ ـ ١٢٨٩ هـ (٣)

وهو يستخدم الاساليب المباشرة ، وكأنه لافرق عنده بين لغة الشعر ولغة النثر

محبة الاوطان ... من شعب الايمان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره ... لاحببت بالتصديق والاذعان

ولا نجد اى تغيير فى تركيب العبارة او علاقة الكلمات بعضها بالبعض اذا عبرنا عن هذين البيتين نثرا بل لانحتاج الى الفاظ غير التى استخدمها الشاعر هنا .

ومع ذلك كان يستخدم احيانا الاسلوب التصويرى ، وهو فى تصويره يدور فى فلك الصورة البلاغية القديمه ، بل يسىء استخدامها حين تفقد غاياتها من ذلك قوله:

---

(1) Les grandes étapes de la civilisation francaise par jean thoraval Edition:Bordas-Paris, 1976,1978, P.271.

(٢) ، (٣) ، ديوان رفاعه ، ص ٩١ ، ١٢٨ .

لكأننى صب اصون تلهفى ... حتى كأنى لست باللهفان

فليس وراء هذا التشبيه اضافة جديدة للمعنى غير سوء استخدام الصورة البلاغية بشكلها القديم. وقد تفلح المبالغة فى تجسيد الاحساس او تلوينه اذا كانت مقبولة ولكنها تكون ثقيلة ممقوته اذا لم تفلح فى ذلك ، وتصبح عوارا فى الاسلوب ، ولا يخلو اسلوب رفاعه من المبالغة الممقوته : من ذلك قوله:

وبباطن الاحشاء نار لو بدت ... جمراتها ماطاقها الثقلان

وقد تؤدى ركاكة الاسلوب الى غموض معناه ، وتلك ايضا من مثالب الاسلوب فى عصر رفاعه ، ولم يسلم شعره من ذلك كما نرى فى هذا البيت :

ماأحسن القتلى باغضان النقى ... ماأطيب الاحزان بالغزلان

ومن مظاهر ضعف الاسلوب ايضا استخدام الكلمات استخداما غير واضح الدلالة او غير دقيق فى معناه ، كما نرى فى قوله :

ويردنى ابدا نزاهه مقتلى ... فى حسن طلعة فاتك فتان

ومن ثم يتضح لنا الفارق بين اسلوب الشعر فى هذا النوع من قصائد الشعر الوطنى وبين مفهوم الوطنيه المتطور عند رفاعه ، فلم يستطع اسلوب هذه النماذج الشعريه ان يتطور بالصورة التى تمكنه من استيعاب هذا المفهوم والاداء به . وظلت هذه الفجوة قائمة فى فن الشعر الوطنى ، ولم يلتئم صدعها الا بعد تطور اسلوب الشعر العربى على يد فحول الشعراء بعد عصر رفاعه ، وتجلت فى وطنيات شوقى التى قارن الرافعى بينها وبين وطنيات رفاعه فجعل الثانيه فى المرتبة الثالثة او الرابعة من حيث الروح والبلاغة وابتكار المعانى .

وربما كان الشىء الوحيد الذى اكتسبته تلك النماذج او تاثرت به من محاولة رفاعة التعبير عن مفهومه للوطنيه من خلالها هو تكوين هذه النماذج وصيغها بالروح الوطنى بحيث يرتبط فن المديح او الفخر بقضية من قضايا الوطن .

اما الاناشيد فيصفها استاذنا الدكتور احمد هيكل بقوله:

مما يلفت النظر على الاعجلب مانراه من تلوين فى موسيقى الشعر وخروج على رتابة النغم خروجا لم يألفه الشعر العربى لافى عصر الشاعر ولا فيما قبله من عصور ولاتكاد نجد له شبيها الا عند الاندلسيين الوشاحين الجيدين واستشهد لذلك بقول رفاعه:

ياحزبنا قم بنا نسود ... فنحن فى حربنا أسود
عند اللقا بأسنا شديد ... هام عدانا لنا حصيد
حامى حمى مصرنا سعيد ... فى عصره مجدنا يعود
بجنده المجند ... وسيفه المهند
ونصره المؤيد ... وعزه المشيد

فى عصره مجدنا يعود

فالشاعر فضلا عن تلوينه للقوافى فى هذا النشيد قد استخدم بحرين هما: مخلع البسيط فى الاشطر الطوال ، واستخدم مجزوء الرجز فى الاشطر القصار.(١)

ولا ريب ان الاناشيد الوطنية تتطلب اسلوبا خاصا فهى تحتاج الى الايقاع الملائم للانشاء الجماعى والذى يناسب خطوات الجند ، ومن ثم فانه يناسبها التنوع فى الوزن والقافية وسهولة الالفاظ وقوة جرسها الموسيقى والتعبير المباشر.

وقد استخدم رفاعه فى اناشيده بعض الكلمات الاجنبية ، كما استخدم بعض الكلمات العربية استخداما لم يلتزم فيه بقواعد النحو من ذلك قوله:

هيا التحموا عند الهيجا
هياهيا (سونكى) د وران

فكلمة (سونكى) غير عربية

وكلمه دوران ، مفعول مطلق استخدم فى مكان فعل الامر وكان حقه ان يكون منصوبا. واستخدامها هنا يسير على نمط استخدام القادة والمدربين العسكريين حيث يقيمون المفعول المطلق مقام فعل الامر، وترى ذلك حين يامرون الجند بالقيام او الزحف او نحو ذلك.

---

(١) وردت هذه المقطوعه فى ص ١٩ من الديوان الذى جمعه د. طه وادى ، ومصورة مغايرة حيث جعلها رباعيه. الاشطر الثلاثة تنتهى بقافية والاخيرة بقافية الدال وموحدة فى القصيدة كلها وجعل موسيقاها من بحر واحد هو مخلع البسيط.

مكانته وتاثيـــــره

سبقت نهضة النثر العربى فى مصر الحديثة نهضة الشعر ، فقد اتجه الرعيـل الاول من رواد النهضة المصرية المعاصرة الى العلوم قبل الاداب بنقلونها الى اللغة العربيـة باسلوب النثر ، وكان اهتمامهم بالادب عموما والشعر خصوصا اهتماما تاليا استجابة لمتطلبات نهضة مصر كما ارادها حاكمها فى ذلك الوقت (محمد على) وهكذا كان رفاعه يكتب شعره فى اطار نشاطه الاجتماعى والفكرى وفى مرحلة تالية ودرجة اولى بالنسبة لجمل تراثـــه الفكرى والعلمى ولعل هذا هو السبب الذى جعل الدكتور طه وادى يعتبره شاعـــرا هاويـا (١) .

وقد اكد عبدالرحمن الرافعى فى دراسته اسلوب رفاعه ان الشعر يأتى فى درجـــة اقل من النثر ، ولكنه يذهب الى القول بأنه لو تفرغ رفاعه للادب والشعر دون التعريب والتاليف العلمى لبلغ فى دولة الادب شأوا اعظم مما ادركه . (٢)

وارى انه لاينبغى ان ننظر الى شعر رفاعه الوطنى من زاوية الجانب الشعرى فقط بل ينبغى ان ننظر اليه من زاوية شخصيته متكاملة ولعل الصفة التى تصدق عليه وهى صفـة المصلح . لا الشاعر الهاوى ،ولا الشاعر المقتدر الذى حالت ظروفه دون الوصول الى اعلـى الدرجات. ولا يغض ذلك من قيمة رفاعه ، ولاسيما وان معاصروه من الشعراء لم يكونـــوا اشعر منه ومن منطلق شخصية المصلح راح رفاعه يربى امته وينهض بوطنه فكتب اناشيـده الوطنيه ليحقق هدفين احدهما اثارة روح الوطنية فى الامة وتوجيه شعرائها الى مثل هذا النمط من القول ، وضرب الامثلة التطبيقية على دعواه فى النهضة .

ويبدو ان كتابة الاناشيد الوطنيه جزء من رسالة المصلحين لتحقيق الهدفين السابقين على اختلاف البيئات والظروف ، فاين باريس رائد الحركة الاصلاحية فى الجزائر الحديثـــة يسلك هذا السبيل فيكتب الاناشيد الوطنيه لتلاميذه ، ولا يغض من قيمة حركته الاصلاحية ولا من اثارها فى تحرير الجزائر الا بعد من بين الشعراء الهواة او المقتدرين ، وكذلـــك فعلت بعض قيادات الاخوان المسلمين فى مصر .

---

(١) ، (٢) عصر محمد على ، ص ٤١٠ ومابعدها .

وقد افلح رفاعه فى غرس بذور النشيد الوطنى ، وظل بالصورة التى وجه الانظـــار اليها . فالاناشيد الوطنيه متعددة الالوان منها الاناشيد الحماسية ، ومنها الاناشيـــد الدينيه والقوميه ، وكانت اناشيد رفاعه كلها من النوع الحماسى وهو النوع الذى نما علـــى أيدى لفيف من الشعراء الذين جاءوا بعد رفاعة من امثال مصطفى صادق الرافعى فـــى نشيده والذى بدأه بهذا البيت :

اسلمى يامصر اننى الفدى ... ذى يدى ان مدت الدينا يدا

ومحمود عبدالحى فى نشيد القسم :

أقسمت باسمك يابلادى فاشهدى ... اقسمت ان احمى حماك وافتدى

واحمد رامى فى نشيده :

مصر التى فى خاطرى وفى دمى ... احبها من كل روحى ودمـــى

وفى الوقت نفسه لاترى النوع الآخر من الاناشيد الوطنيه [1] وان فن النشيـــــد اقتصر على النوع الذى بدأه رفاعه وعلمه شعراء امته .

وبعـــــد : ...

فاننا بعد هذه السيرة مع شعراء الوطنية عند رفاعه الطهطاوى نستطيع ان نستخلص النتائج التالية :

- ان رفاعه يعد رائدا للشعر الوطنى - بالمفهوم المعاصر للوطنيه - وله فضل السبق الى ذلك فى الادب المصرى الحديث .
- ان وطنيه رفاعه فى شعره وطنية صادقة وليست مداراة .
- ان مفهوم الوطنية كما يتحدد من خلال شعره يدور فى فلك " المصرية " وهو بذلـــك متأثر بالمفهوم السياسى المعاصر وليس بالموروث عن التراث الشعرى العربى القديم .
- ورفاعه مجدد فى اغراض الشعر العربى وتجديده يسير فى اتجاهين :

---

(١) رأى فى ادبنا المعاصر، محمد عطا ، القاهره: مكتبة النهضة ١٩٥٨ ، ص ٦٠ ومابعدها

١ـ صيغ الاغراض القديمة بطابع الوطنية كالمدح والفخر وغيرهما .

٢ـ نظم الاناشيد الوطنيه الحماسية .

- بعد رفاعه فيّ معاوسته الشعر " مصلحا وليس شاعرا هاويا .
- امكانات رفاعه الشعريه تقف عند حد توجيه ابناء امته الى ماينبغي ان يقال فيه الشعر باسلوب عملي .
- اسلوب شعر الوطنيه عند رفاعه متأثر باسلوب الكتابة العربية في عصره ، وعطاء رفاعه فيتطوير لغة النثر كان اخصب من عطائه في تطوير لغة الشعر .

نماذج من شعره الوطني

١ــ حنين الى مصر :

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمة مغرم ولهان
ماخلته مذ صاح الا أنه ... اضحى فقيد اليفه ومعاني
وكأنه يلقى الى اشارة ... كيف اصطباري مذ نأى خلاني ؟
مع انني والله مذ فارقتهم ... ماطاب لي عيشي وصفو زماني
لكنني صب اصون تلهفي ... حتى كأني لست باللهفان
وبباطن الاحشاء نار لو بدت ... جمراتها ماطاقها الثقلان
ابكي دما من مهجتي لفراقهم ... واود ان لاتشعر العينان
لي مذهب في عشقهم واريته ... ومذاهب العشاق في اعلان
ماذا على اذا كتمت صبابتي ... حتى لو ان الموت في الكتمان
ماأحسن القتلى باغصان النقى ... ماأطيب الاحزان بالغزلان
قالوا أتهوى والهوى يكسو الفتى ... ابدا ثياب مذلة وهوان
فأجبتهم لو صح هذا انني ... اختار ذلي فيه طول زماني
والذل للعشاق غير معرة ... بل عين كل محبة للعاني
اصبو الى ما حاز قد أهيفا ... يرزى ترنحه بغصن البان
واحن نحو شقيق تم خده ... قد نم فيه شقائق النعمان
ويروق ابدا نزاهة مقلتي ... في حسن طلعة فاتك فتان
امسى واصبح بين شعر حالك ... ومنير وجه هكذا الوان
ولطالما قضيت منه حقبة ... ونسيم مصر معطر الاردان
زمن على به لمصر فديتها ... حق وثيق عاطل النكران
لو شابهت عيناي فاخر نيلها ... لم توف بعض شفائه احزاني
او لو حكى قلبي بحار طوسها ... طربا لما اخلو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموس اشرقت ... وانارت الاكوان بالعرفان

فشذا عبير علومهم عم الورى ... وسرت مكارمهم لكل مكان
وحموتهمو مصر فصارت روضه ... وهمو جناها المبتغى للجانى
قد سبهوها بالعرس وقد بذا ... منها "العروسى" بهجة الاكوان
قالوا تعطر روضها فاجبتهم ... عطارها حسن شذاه معانى
حبر له شهدت اكابر عصره ... بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره ... لاجبت بالتصديق والاذعان
هذا لعمرى اليوم فيها سادة ... قد زينوا بالحسن والاحسان
ياايها الخافى عليك فخارها ... فاليك ان الشاهد "الحسنان"
ولئن حلفت بأن مصر لجنة ... وقطوفها للفائزين دوانى
والنيل نوثرها الشهى شرابه ... لابُر كل البر فى ايمانى
دار يحق لها التفاخر سيما ... بحزيزها جدوى بنى عثمان
حاز المحامد اذ دعى بمحمد ... ورقى العلا فعلى على الاقران
من كان مثل اميرنا فقرينه ... اسكندر او كسرى او شروان
فى وجهه النصر المبين على العدا ... لاحت بشائره لكل معانى
فى كفه سيفان: سيف عناية ... والشهم ابراهيم سيف ثانى
سل عنه ينبيك الحجاز مشافها ... بدمار اهل الزيغ والبهتان
من قبل كانت سبله مذعوره ... والان صارت فى كمال امان
لاغروان "نجد" ادامت شكره ... فلقد كساها حلة الايمان
وسمعت الى زنج طلائع جيشه ... فاطاعها العانى من السودان
وتقلب الاروام عدل شاهد ... كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باءوا بوافر خزيهم ... وتقاسموا حظا من الخسران
ثم تخط قامة رمحه اغراضها ... واصابه الاغراض نيل امانى
احيا بدولته قد غدت ... لوضحها تجلى على الاذهان
بطل مكارمه الجليلة قلدت ... هام الزمان مكلل التيجان
يهنيك يامصر لقد حزت اليها ... بمحمد باشا على الشان
فاحظى بفاخر حكمه وتمتعى ... وبذلك افتخرى على البلدان
مدى اكف الشكر وابتهجى بان ... يبقيه مولاه طويل زمان

٢ ـ فى التغنى بمصر ومدح الخديوى اسماعيل :

ايا خليلى دعـــــا ذكر السوى واستمعـــــا
حديث فخر طلعـــــا فى مصر ابهى مطلـــــع
فخـــر اجاب من دعـا لكسبـــه ومن دعـــــى
فى وطن من ادعـــى له لحاقا فدعـــــى
بدر عـــلاه سطعـــا وفـى سمـا المجد سعـا
على البهاء خلعـــــا فى الكون ابهى الخلـــع
فخـــر اجاب من دعـا لكسبـــه ومن دعـــى
فى وطن من ادعـــى لـــه لحاقـــا فدعى
حـــادى السرور رجعـا بعزنـــا مذ رجعـــا
وقـــد ابان لمعـــا ياحسنها مـــن لمـــع
وطننـــا تعـــــززوا وبالهنـــا حجيـــزا
هل غيـــره تميـــزا بسهلـــه الممتنـــع
اصيل فخـــر اسبـــق على مـدى الدهر بقـــى
بطيـــب فكر عبـــق يضـــرع للمستمـــع
حديثـــه عالى النسب بالعـــز مرفوع النســـب
وحسبه ان يحتســـب ففى المحـــل الارفـــع
سوق علاه نافـــــق بغيضه منافـــــقث
صديقـــة الموافـــق يسوقـــه للانفـــع
ليس اللبيب ذو الفطـــن الا المحـــب للوطـــن
وموضع بـــه قطـــن لديـــه اسمى موضـــع
فمسقط الرأس احـــب مـــن راس مال يكتســـب
ومن لحبه انتسبـــب فهو الذكى الالمعـــى
وذو العقـــوق يوقـــظ يومـــا لحقـــوق يوعـــظ
عسى يعـــى ويحفـــظ عهـــدا رعاه من يعـــى
اكرم بمصر من حمـــى علاه قد سامـــى السمـــا

مربعة لقد سما فياله من مربع
مدت عليه اعصر والمجد لايقصر
فيه المديح يقصر اقصر اخى واجمع
نظم النسيب والغزل فى غير مصر يعتزل
فيها علا ومانزل على غزال لعلع
فى جبهها تسمو الهمم فى جبهها تعلو الشيم
فى جبهها تعلو الشيم بقدرها المرتفع
ونيلها المبارك فى الفيض لايشارك
ارجاؤه مسالك ترجى بكل مشرع
يروى بعذب سلسل اخبار فضل مرسل
بالصفا مسلسل عن الوفا بالادرع
فمصر ما اجلها الكل يهوى وصلها
فان رنت عين لها نفقاها بالاصبع
رفيعة شئونها منيعة حصونها
بديعة فنونها كم شيدت من يلقع
عزيزها موفق وبالنفوس يرفق
وللنفيس ينفس من بحر جود اوسع
مليكها توطنا حيث اصطفاها وطنا
وللمعالى فطنا وللسوى لم يهرع
ومذ غدا مولاها للعز قد اولاها
مؤيدا ولاها ببأس ليث اروع
ياأيها الجنود والقادة الاسود
ان امكم حسود يعود على المدفع
فكم لكم حروب ينصركم توءب

لم تشكـــم خطـوب ولا اقتحـــام معمـــع
وكم شهدتم من وغـــى وكم هزمتم من بغـــى
فمن تعـدى وطغـــى على حماكـــم يصـــرع
وحسبكم اى اهبـــطوا مصـــرا فمـــن يثبـــط
ومن يـــذم بخيـــط فادعـــوه بالمبتـــدع
فلتبسطوا كف الدعـــا لمن علاكـــم رفعـــا
وشملكـــم قد جمعـــا بالعـــز ابهى مجمـــع
محمـــدى علـــى بوعـــده وفـــى
وعزمـــه حـــبى لم يجـــن زهر مطمع
والسعد اسماعيـــل مقصده جليـــل
كجـــده يميـــل لكســـب مجـد ارفـع

٣- اشادة بجند مصر:

ياجند مصر لكم فخـــار بين الورى عالى المنـــار
كالشمس فى وسط النهـار صيت لكم فى الكون ســار
حادى السعود به حـدا والطير صاح وغـــردا
الله ايد نصركـــم والذكر شرف مصركـــم
والعدل اذهب اصركـــم والفضل حالف عصركـــم
والوقت طاب واسعـــدا والعز عاد كما كابتـــدا
مامجدكم الا قديـــم والعز فيكـــم مستديـــم
وعدوكـــم ابدا عديـــم اما الحبيـــب او النديم
فيعزكم قهـــر العـــدا وسقاهـــم كاس الـــردى
اسلافكم حـــازوا الشرف سلف مضى نعم السلـــف
كونوا لهم اسمى خلـــف كل بفضلهم اعتـــرف
من فـــى مكارمـه اقتدى بابيه لاشك اهتـــدى

من حين عهد "سزستريس" كان الحروب لها مسيس
القى المهابة والرسيس فى كل جيش او خميس
صيدا وصوراتحذا ولمصر قد مدا يدا
ضباطكم غر كرام ولهم لدى الهبوط غرام
الجبن عندهم حرام وهم اذا سلوا الحسام
تجد الرؤوس العدا خرت ركوعا سجدا
حركاتهم طبق الاصول قراوا البنود مع الفصول
حازوا الاطاعه بالوصول وشجاعه عظمى تصول
تدع العدو منكدا فزعا اذا سمع الندا
فلتحفظوا علم النزال وتثبتوا بين الرجال
وتخلدوا فى كل حال فمجالكم اعلى مجال
والعمر مقدور المدى اجل له قد حددا
فالعز فى حمل السلاح يحلو السلاح مع الصلاح
للدين والدنيا نجاح وختام مسك القول فاح
خير يصح بالابتدا فتبصروا فى المبتدا

اهم مراجع البحث

اولا : المراجع العربية :

١ـ الاداب العربية فى القرن التاسع عشر لويس شيخو ، بيروت ، ١٩٢٤ ، جـ٢ .

٢ـ الخطط التوفيقية لعلى مبارك ، ١٣/١٥

٣ـ الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى تحقيق محمد عمارة ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٤ـ اعيان البيان ، للسندوبى ، القاهرة ، ١٩١٤ .

٥ـ تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الفكر السياسى والاجتماعى ، د . لويس عوض ، كتاب الهلال ، ابريل ١٩٦٩ .

٦ـ تطور الادب الحديث فى مصر اوائل القرن التاسع عشر الى الحرب الكبرى الثانية د . احمد هيكل ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٧ـ تنظيم السياسة ، د . طه بدوى ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

٨ـ ديوان رفاعه رافع الطهطاوى جمع ودراسة د . طه بدوى ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٩ـ راى فى ادبنا المعاصر ، محمد عطا ، القاهره ، ١٩٥٨ .

١٠ـ رفاعه رافع الطهطاوى ، د . جمال الدين الشيال ، القاهره ، ١٩٥٨ .

١١ـ رافاعه رافع الطهطاوى ، حسين فوزى النجار ، اعلام العرب ، ١٩٥٣ .

١٢ـ عمر محمد على عبد الرحمن الرافعى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، جـ٢ .

١٣ـ ملاحظات حول نظرية الادب وعلاقتها بالثروة الاجتماعيه ، محمود امين العالم الجزائر ، وزارة التعليم العالى .

١٤ـ المواقف الادبية ، د . محمد غنيمى هلال ، القاهرة .

ثانيا : المراجع الاجنبية :

CH . M Des Granges et CH. CHAPRIER.

LA Lecture Expliquée Edition : HATIER.

Paris I959

Jean THORAVAL Celette PeIlerin Jean Le SeIleus.

Les Grandes étapes De La CiviIsation Française: Bordas.

Paris I972

PETIT ROBERT. Paris I972